الطليعة: بدايات الفن التشكلي السعودي

عبدالعزيز عاشور

نشأ الفن في المحترف التشكلي السعودي بفضل مبادرات وجهود فريدة قام بها رسامين تنتمي ثقافتهم إلى عادات وتقاليد محافظة إلى أبعد حد في وقت لم يتقبل فيه المجتمع تدريس مادة الرسم كمقرر في العليم العام بمرونة، وفي وقت بدأ متأخر عن بعض الدول العربية الرائدة والمجاورة، مثل: مصر ولبنان والعراق وسوريا. فضلاً عن ذلك، كانت المبادرات أو المحاولات المبكرة معزولة عن المجتمع وعن دول المركز والجوار كما في فراغ، ولا نبالغ عندما نقول أن تلك المبادرات ولدت في ظروف فكرية لا تسمح بالاعتزاز بالفن كممارسة، ناهيك عن المواقف المتشددة التي لا ترى في الفن قيمة تستوجب الالتفات إليه أو الاهتمام به. ومن نافل القول أن المؤسسة التعليمية ممثلة في وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) حالياً، والرئاسة العامة لرعاية الشباب وبعض رجال الفكر المتنورين، هم الذين ساهموا على إبقاء هذه الممارسات ماثلة أمام المجتمع المحلي.

في النصف الأول من الخمسينات ظهرت موهبة المرحوم الفنان عبدالحليم رضوي ١٩٣٩ - ٢٠٠٦ م ومواطنه عبدالرشيد سلطان في مناقسة شبه محصورة بين طلاب المعهد العلمي السعودي، وطلاب مدرسة تحضير البعثات تمثلت بإعداد ركن خاص لأعمال كل منهما في معرض النشاط السنوي العام الذي أقيم بمكة المكرمة عام ١٩٥٣ م، وفي نهاية الخمسينات وتحديداً عام ١٩٥٩ م اشتد عود الرضوي في أول مسابقة للوحات الفنية على مستوى الرسمي للمدارس الثانوية بالمملكة، وحقق للممدرسة العزيزية المركز الأول عن لوحته الموسومة (القرية) حينها تلقى الرضوي إشارة بلاغة موهبة الفنية، ويذكر أن لوحة القرية تضمنت منازل طنينة وأشجار.

بينما ظهرت موهبة المرحوم الفنان محمد السليم عام ١٩٥٨-٢٠٠٦م في نفس العام الذي تقرر فيه تدريس مادة التربية الفنية بالمملكة، حيث أسند إليه تدريس مادة الرسم في المدرسة وهيئة التدريس عم موهبته ونشاطته الملحوظ في تنفيذ اللوحات الخطية، وفي عام ١٩٦٠م حصل على الجائزة الأولى في نشاط التربية الفنية في إحدى الدورات التأهيلية للمعلمين متلقياً هو الآخر إشارة بلاغة موهبته الفنية.

بداية الستينات ظهرت ممرات متعددة من بينها إرسال أول بعثة لدراسة التربية الفنية إلي القاهرة ثم تلتها بعثة إلى روما وبفضل حكمة وزارة المعارف تم إنشاء أول معهد للتربية الفنية بالرياض عام ١٩٦٥ م بغرض تخريج دفعات من مدرسي التربية الفنية تسد حاجة المدراس في البلاد.

ويذكر أن الرضوي يرحمه الله كان أول أستاذ سعودي يلتحق بهيئة التدريس، وبحسب الروايات الدارجة بين الفنانين يقال أنه عندما عاد إلى مسقط رأسه كان متحرراً في رؤيته الفنية وأن ذاكرته الجمالية تعج بالحداثة التي التقطها إبان دراسته في روما، وحاول أن يلقّن طلابه في المعهد شيئاً منها، وتؤكد بعض الرويات أن هذه المعطيات لم ترق لبعض طلابه، فيما التقطها البعض الآخر بجدية، أكمل الرضوي في المعهد عاماً واحداً وغادره إلى جدة من دون رجعة، بينما ابتعت السليم عام ١٨٧٠م إلى أكادمية الفنون الجميلية بمدينة فلورسنا بإيطاليا وعاد إلى الرياض ملتحقاً كمهندس للديكور ثم رئيساً للقسم بمحطة تلفزيون الرياض.

يعتبر إنشاء معهد التربية الفنية ١٩٦٥م ودعم الرئاسة العامة لرعاية الشباب (وزارة الثقافة والإعلام) حالياً منعطفاً تاريخياً في ممرات التشكيل السعودي، ويعود للمعهد الفضل في تخريج عدد من أهم طلائع الفنانين التشكيلين بالمملكة، بينما كان لرعاية الشباب اليد الطولى في دعم الفن والفنانين على مختلف أجناسهم ومستوياتهم خاصة، ممن تمتعت مواهبهم بحضور متميز، كما في حال الفنان عبد الجبار اليحيا ١٩٣١م والفنان طه صبان ١٩٤٨ وكلاهما لم يتحصلا على أيه دراسات أكادمية متخصصة في الفنون، وبفضل عصاميتهم احتلوا مكانة بين فناني الطليعة. وهناك ممن درسوا في معاهد محلية وعربية مثل الفنان عبدالله الشيخ ١٩٣٦م الذي تخرج من معهد الفنون الجميلة في بغداد عام ١٩٥٩م كأول فنان حصل على دراسة أكاديمية متخصصة في المحترف السعودي وكل من الفنانين محمد الرصيص ١٩٥٠م وعبد الله حماس ١٩٥٣م اللذان تخرجا من معهد التربية الفنية بالرياض، والفنان عبد الرحمن السليمان ١٩٥٤م والذي تخرج من معهد المعلمين بالدمام. فضلاً عن ذلك، لعبت رعاية الشباب دوراً في احتواء ورعاية الفنانين وتشجيع المواهب الفنية من الجنسين وهي التي منحت المعارض والنشاطات التشكيلية غطاء شرعياً ورسمياً ولها الفضل في تعزيز حضور الفن التشكيلي السعودي على الساحة المحلية والدولية.

توضح السطور السابقة مؤشرات عن المشاركين في المعرض وبداياتهم التاريخية، أما فيما يتعلق بفعل الممارسة والأشكال الإبداعية التي أنجزها هؤلاء في بداياتهم، فيبدوا أن غالبية المؤثرات الجمالية المبكرة تمثلت في طقوس المحاكاة والتسجيل لمختلف أوجه النشاط المحلي والإنس، ثم ظهرت فيما بعد تأثيرات تيارات عصر النهضة مثل التكعيبية والانطباعية والتأثيرية والسريالية والتجريدية ونحوهما. والواقع أن هذه الصورة البصرية وصلت إليهم بفعل المتطلبات التعليمية التي تلقتها متخيبلتهم الإبداعية إبان مسيرتهم الدراسية، وبفعل ما كان يدور في المحترفات العربية في دول الجوار التي عانت في بداياتها من المقاربات مع النسق الجمالي في الغرب، حتى أن غالبية الفنانين في الوطن العربي بقى مرتهناً للمثال الغربي في القن. وكانت هذه الإشكالية مؤرقة للجميع من دون استثناء ومع ذلك لم تنل هذه القضية من تطلعات فناني الطليعة ولم تثنيهم عن مواقفهم، خاصة عندما وجدوا أنفسهم في منطقة تستوجب عليهم اكتشاف هويتهم الحلية. ولاشك أنهم استدركوا ما يمكن اعتباره دفاعاً عن الهوية. من الطبيعي إن تتطلب، مثل هذه الإشكالية، مساجلات مكثفة حول مفهوم الأصالة والعاصرة التي تبنتها معهم المؤسسة الرسمية ممثلة في رعاية الشباب، لقد انحازت تجاربهم الفنية بالإجمال إلى أقرب صورة تلامس الواقع المحلي والمحاكاة من وجهة نظر النسق الجمالي في الغرب، وكان عدداً كبيراً منهم يعيد النظرة تلو الأخرى في معطياته من زوايا متعددة بغية الوصول إلى نتائج إبداعية فيها من المقربات مايسد ويدعم محاولاته ويسمح لها بحضور يعزز من صورة المشهد الفني المحلي بصورة عامة، ومن صورة بلاغة وخصائص حساسية كل فنان نميزه بين أقرانه.

لقد استنفرت بلاغة فناني الطليعة أمام العلاقة بين منجزاتهم وبين الأنساق البصرية في الغرب، وبينهم وبين جمهورهم الذي لا يعرف عن الفن سوى أنه محاكاة وتسجيل للواقع. وبين متطلبات صناعة أشد المواقف تطرفاً نحو الحداثة، وبين قدراتهم على ابتكار أشكال جديدة انطلاقاً من المجابهة بين ما يعتنقه الغرب كفكر نظري وجمالي وبين ما يعتنقه كفنان محلي له تقاليد وعادات مختلفة، وبين ذلك إجمالاً وبين طبيعة اختياره لموضوعاته البصرية، وبين متطلبات واقعة وعداء المناهظين للفن، وبين ما إذا كانت وظيفة الفن هي إنتاج الواقع أو إنتاج الغن بواقع آخر، وفي فترات متراوحة بقيت هذه الأسئلة تؤرق غير فنان، لقد راهن نفر منهم على صياغة إبداع تجربة محلية وعربية معاصرة فيما استمر البعض الآخر يعتبر أن ما يتصالح مع مجتمعه أهم بكثير من التحولات والتغيرات التي يتطلبها الفن، وفي سبيل هذه المعركة عانى كل الفنانين دون استثناء من مساجلات تأكد فيما بعد أنها لن تنتهي بإجماع واحد، فالتطلعات الجمالية التي تبناها فناني الطليعة في تعزيز بلاغة التراث والعادات والتقاليد، بقدر ما عززت من الحوار حول مفهوم كل منهم عن مصطلح الأصالة والمعاصرة، إلا أنها لم تكن سهلة عند تطبيقها في المنجز البصري ذاته. وبالمحصلة فقد بلغت تلك المنافشات أقصى حدود لها في الثمانينات وبقدر مالعبت دوراً في تعزيز منجزاتهم في مقابل النموذج الغربي إلا أنها كشفت عن ثلاث تيارات تنابها فناني الطليعة من حيث رؤيتهم الجمالية لمصطلح الأصالة والمعاصرة، فقد تبنت الفئة الأولى أهمية الارتباط بالتراث والتقاليد فكراً ومضموناً، فيما اعتبرت الفئة الثانية أن المتثال لرسم التراث والتقاليد يعد عقبة أمام إبداعاتهم وخصوصية بلاغتهم الجمالية، وبين الفئتين اتخذت الثالثة عمليات التجريب منهجاً أكثر مرونة ووسطية بغية الوصول إلى معدلات ومقاربات وصيغ جمالية أقرب إلى الحداثة والانفتاح على التيارات الجديدة، بدلاً من النغلاق على أحد النقيضين.

وبالإجمال فإن فناني الطليعة في المحترف التشكيلي المحلي جددوا من حيوية تجاربهم البصرية وطوروا من الرؤية الجمالية التي تباينت بين استلهام التراث والتقاليد، والاستفادة من التيارات والتجارب والتقنيات التي تعلموها إبان دراستهم. وقد وصل بعضهم إلى بعضهم إلى تجارب فنية لافته ذات صيغ إبداعية متنامية وملهمة في طقوسها وبلاغة جودتها. ونقلتها النوعية أسهمت في رفع مستوى التجربة من مجرد المحاكاة البسيطة إلى المفاهيم الأكثر بلورة لرؤيتهم التي تنتمي إلى الفن ومتغيراته الفكرية والجمالية، بالنتيجة فإن أهم ماسعى إليه فناني الطليعة هو الدفاع عن هويتهم المحلية.

وفي ظل تلك المفارقات، عانى فنانوا الطليعة مثلهم بعض فناني المحترفات العربية المجاورة من التهميش، ومن بعض طبقات المجتمع التي لا ترى في الفن أي جودى، ومن فكر مناهض، ومن قصور في النظرة إليهم، ومن تقليم هامش التعبير المتاح لهم، أو ذلك الذي كانوا يتطلعون إليه من خلال معطياتهم الجمالية. ومع ذلك فقد اختاروا أن يعملوا بكل طاقاتهم وقدراتهم من أجل إنتاج جمالي يستلهم التراث بروح العصر ويعزز الانتصار لرسالة الفن. بالنهاية فقد اختار غالبيتهم أن تدور به عجلة الفن من دون أن يدرك العواقب، مثل مغامرة لم يعرف المرء ما إذا كان سينجو منها أو سيلقى حتفه. إنهم جيل حصد بعضهم ما زرع، ووقع بعضهم في متاهة وعزلة، وانتهى بعضهم الآخر بمنأى عن الفن، بالمحصلة فجميعيم كان لهم اليد الطرلى في صناعة بداية الفن في التجربة التشكيلية السعودية.

لقد شكلت المكتسبات التي أنجزها فناني الطليعة إرث من اللوحات والأعمال المعاصرة جسدت حساسية بلاغتهم الجمالية تجاه عوالمهم المتعددة، ودمغ أكثرهم خصوصيته المرهفة التي تميزه عن أقرانه، وانتصر أغلبهم لأصالته باستلهام التراث بروخ العصر، وجعلوا من الفن لغة حية للذاكرة الجمالية المحلية، وباتت منجزاتهم وإبداعاتهم أبعد بكثير من التقاليد والمحاكاة، ولازال بعضهم مثابراً على تعزيز روافده ومحولاته التجريبية التي لا تقف عند حد.
ولعل آمالنا كبيرة في أيام مشرقة ينال فيها هؤلاء منصات تخلدهم وفق شروط اللعبة التي تبنتها معتقداتهم الفكرية والجمالية في ظل المتغيرات والتحولات الجديدة المتسارعة والتي من شأنها أن تعمل على تنامي عجلة الفن إلى أبعد صورة يحلم بها الجميع،